الرأسمالية الغربية وتأويلها الفكري للوجود: وجود الذات والآخر، ذات المستند التوراتي[١٢].

والحقيقة ان هذه المسألة من المسائل المحفوفة بالغموض، نظراً الى ميل الدراسات العربية الحديثة الى نفي العلاقة بين اليهودي والصهيوني، واعتبار الصهيونية حركة سياسية فقط، على الرغم من ان هذه الحركة السياسية تعتمد، اعتماداً مباشراً، على الرؤيا اليهودية للتاريخ والعالم.

ولا شك في ان ثمّة واقعاً منفعياً وراء هذا التشديد على النفي. ولكن ثمّة ظواهر تشير الى ان الاسطورة اليهودية ليست مجرّد ذريعة، بل هي محرّك أساس. فحين قالت لجنة جائزة نوبل للعام ١٩٦٦ عن جائزتها للكاتب اليهودي عجنون انها تقدير لكتاباته التي «تمثّل رسالة اسرائيل الى عصرنا»[١٣]، فلا شك في ان الشيء الكثير يمكن ان يُكتب عن هذه الرسالة: فحواها، ومراميها، والسؤال عمّا اذا كانت هي الرسالة ذاتها التي دمغتها الأمم المتحدة بالعنصرية في العام ١٩٧٥؟

وتميل الدراسات العربية ذاتها الى تجريد العلاقة العنصرية بين الصهيونية والاستعمار من الطوابع الفكرية والثقافية بعامّة، واختصار هذه العلاقة ببعد المنفعة السياسية. ولكن هذا التجريد، اذا كان يفسّر لنا الخطاب السياسي الغربي، فانه لا يفسّر لنا لماذا يتغلغل الايمان بالصهيونية في أوساط واسعة في الغرب رفضت حركة الاستعمار في مناطق عدّة من العالم وباركتها في فلسطين.

رواج الاسطورة

حاول د. عبدالوهاب المسيري، في كتابه الآخر «الفردوس الأرضي»، استكشاف الارضية التي تلتقي عليها بنية التفكير الصهيوني وبنية التفكير الاستعماري، أي انه حاول تفسير المقولة الشائعة عن الدور «الرسولي» للحضارة الغربية: الدور الذي تحدثت عنه لجنة جائزة نوبل بمناسبة منح جائزتها لكاتب يهودي.

وقد نجحت هذه الدراسة في استكشاف عناصر الالتقاء البنيوي بين الرسالتين، مع عدم الاخلال بكونهما، في وقت واحد، تعبيراً عن ايديولوجية خامدة وسياق تاريخي استثار عروقها في القرن التاسع عشر.

ما يهمنا، في سياق بحث تأثير الرمز اليهودي في العقلية الغربية، هو هذه الارضية، بالذات، ذلك لأننا افترضنا ان رواج الاسطورة اليهودية، ثمّ تبلورها الحديث في الحركة الصهيونية، هما اللذان يشكلان أساس التجاوب الغربي مع المشروع الصهيوني، وهما اللذان يعطيان للأسطورة فعّالية، ولمقولاتها الأدبية سيطرة، حتى لو كانت من وجهة نظر علمية غير ذات أساس مادي.

والحقيقة، ان اسئلة عدّة مثارة في هذا السياق، لم يجر البحث فيها حتى الآن، الّا من وجهة نظر تبسيطية، كالقول ان الحركة الصهيونية «لم تكن غير امتداد لسياسة اوروبا العامّة في الخارج، وتطبيقها على دائرة المصالح اليهودية»[١٤]؛ وبالتالي، فان محرّكاتها واحدة، سياسياً واقتصادياً؛ ومن ثمّ اسقاط الجانب الثقافي، الّا من تناول بسيط تحت عنوان الغزو الصهيوني للعقلية الغربية، وبدون استقصاء لتاريخ هذا الغزو وركائزه.

ان للتأثير الثقافي جانبين متلازمين: جانب روحي، وينبع من تشارك في اطار ايديولوجي واحد؛ وجانب فنّي، وينبع من الوسائل التقنية القادرة على تأسيس، وتجسيد، الموقف الروحي. ولا يمكن فصل أحد الجانبين عن الآخر. ولهذا، لا يكفي الاطار الايديولوجي وحده لضمان تأثير أي نصّ